الحملة المصرية

توطئـــة :

كان استيلاء الإمام سعود على الحرمين ، مكة والمدينـــة ، تحدياً صارخاً للسلطان العثماني ، ولو لم يكن هذا الخليفة – السلطان ضعيفاً ، تمزّق بلاده الفتن الداخلية والحروب الخارجية ، لما سكت عن هذا التحدي ، ولسيَّر جيوشه إلى الحجاز ونجد لمحاربة سعود منذ العام ١٢٢٠ هـ . على الأقل .

لم تكن الدعوة السلفية – التي أُطلق عليها اسم الوهابية – السبب المبـاشر في محاربة العثمانيين للحكم السعودي ، فقد كتب شرفاء مكة والمدينـة وقضاتها ومفاتيها وعلماؤهما وأعيانها كتباً كثيرة إلى السلطان يلتمسون فيها إنقاذهم من (الخطر الوهابي المداهم) – كما كانوا يزعمون – فكانت كتبهم تنـاقش في مجلس الشورى باستانبول ثم يُردُّ عليها بأن القضية بين أهل الحرمين وبين أهل نجـد ليست أكثر من حرب كلامية .. تثيرها اختلافات في تفسير بعض النصوص ، وليس وراء ذلك أي خطر على الدولة العثمانيـة ، بل ذهب بعض أعضاء المجلس إلى القول بأن شريف مكة يريـــد الإستعانة بقوة السلطان لتحقيق أطماعه « التوسعية » في بلاد نجد ! [١]

---

(١) يقول فؤاد حمزة ، في كتابه « قلب جزيرة العرب » : إن دسائس الشريف غالب هي السبب الأول في استفزاز السلاطين العثمانيين ضد الوهابية ، ويضيف – انظر الصفحة التالية –

كان السلاطين العثمانيون يرسلون ، أحياناً ، الكتب إلى ولاة الشام والعراق يحرضونهم على مكافحة « الوهابيين » ولكنهم لم يكونوا جادين في طلبهم كل الجد أو لعلهم كانوا ينفذون بذلك سياسة استعمارية معروفة ، سياسة « فرق تسد » ، فكانوا يضربون البلاد المحكومة بعضها ببعض أو يدفعونها إلى المغامرة لتضعف وتبقى تحت سلطانهم ، خانعة ذليلة !

على أن موقف العثمانيين تغير تغيراً جذرياً في أعقاب استيلاء سعود على مكة عام ١٢٢٠ هـ.وطرده الموظفين والجنود الترك منها ومنعه الدعاء للسلطان العثماني على المنابر ، وحرمانه السلطان من أعز لقب يحمله ، وهو : « خادم الحرمين الشريفين » !

كان ذلك شيئاً مثيراً لم تقوَ على احتماله أعصاب السلطان، وزاد الأمر حرجاً منع سعود للعثمانيين ، سواء أكانوا أتراكاً أم شاميين أم مصريين ، من الحج ، ثم غزوه للشام وإحراقه بعض قراها [١] ..

الى ذلك أسباباً أخرى تكفلت بنجاح دسائس الشريف ، فيقول :

(وقد ساعده في وقيعته بهم عند الحكومة العثمانية ان سعود ، بعد أن فتح الحجاز ، شرع يمهد للاستيلاء على الديار الشامية ، ساعياً الى ذلك بواسطة الولاة والدعاة ، فأدركت الحكومة العثمانية آنئذ ان الأمر بلغ من الخطورة مبلغاً لا يمكن السكوت عليه ، وكانت الحكومة العثمانية تريد كذلك ان تتخلص من محمد علي باشا في مصر فولته ولاية جدة ، أملاً في دفعه وإقصائه عن مصر وكان قصدها اصطياد عصفورين بحجر واحد ، فتضافرت مصالح الحكومة العثمانية والأشراف ، والمصريين أيضاً ، على أهل نجد ، واستعملوا الدين مطية للأغراض السياسية ، ونشروا عن أهل نجد أنهم أحدثوا بدعة جديدة في الاسلام ومذهباً خامساً لا يقره أهل الجماعة والسنة ، وغير ذلك من الدعايات التي ظلت ذات أثر كبير في إهاجة الرأي العام الاسلامي على أهل نجد .

(١) يقول الجبرتي عن انقطاع الحاج الشامي والمصري ما يأتي : سنة ١٢٢٢ ، ورد الخبر بأن ركب الحاج الشامي رجع من منزلة (هدية) ولم يحج في هذا العام وذلك أنه لما وصل الى المنزلة المذكورة أرسل الوهابي الى عبدالله باشا أمير الحاج يقول له : — انظر الصفحة التالية —

وأغلب الظن أن الإمـــام سعود كان يستطيع توحيد جزيرة العرب كلها واستبقاءها تحت رايته إلى ما شاء الله ، لو أنه اتبع سياسة ودية أو شبه ودية مع استانبول ، واكتفى بنوع من التحالف يعقـده مع شريف مكة ، يضمن به ولاءه .

لا تأت إلا على الشرط الذي شرطناه عليك في العام الماضي وهو أن تأتي بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مخالفاً للشرع ، فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حج ولم يتركوا مناكيرهم .

.. وصل حجاج المغاربة الى مصر من طريق البر، وأخبروا انهم حجوا وقضوا مناسكهم وان سعود الوهابي وصل الى مكة بجيش كثيف وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار ، وأحضر مصطفى جاويش أمير الركب المصري وقال له : ما هذه العويدات والطبول التي معكم ؟ – يعني بالعويدات المحمل – .

فقال : هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عاداتهم !

فقال : لا تأت بذلك بعد هذا العام ، وإن أتيت به أحرقته !

وأنه هدم القباب وقبة آدم وقباب ينبع والمدينة ، وأبطل شرب التنباك والنارجيلة من الأسواق ، وبين الصفا والمروة ، وكذلك البدع .)

ويقول الجبرتي في أخبار سنة ١٢٢٣ :

(.. ومنها انقطاع الحج الشامي والمصري معتلين بمنع الوهابي الناس عن الحج ، والحال ليس كذلك فإنه لم يمنع أحداً يأتي الى الحج على الطريقة المشروعة وإنما يمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التي لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة ، وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا في هذا العام وما قبله ولم يتعرض لهم أحد بشيء، ولما امتنعت قوافل الحاج المصري والشامي وانقطع عن أهل المدينة ومكة ما كان يصل اليهم من الصدقات والعلائف والصرر التي كانوا يتعيشون منها خرجوا من أوطانهم بأولادهم ونسائهم ولم يمكث إلا الذي ليس له إيراد من ذلك وأتوا الى مصر والشام ومنهم من ذهب الى استانبول يتشكون من الوهابي ويستغيثون بالدولة فيخلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التيكانوا عليها من اجراء الأرزاق واتصال الصلات والنيابات والخدم في الوظائف التي بأسماء رجال الدولة كالفراشة والكناسة ونحو ذلك .)

ومهما يكن الأمر ، فإن السلطان محمود ، الذي اعتلى العرش عام ١٢٢٣ هـ . بعد مقتل السلطان سليم وعزل السلطان مصطفى في فتنة الينكشرية ، أخذ على نفسه « تخليص » الحرمين من يدي سعود، ولما كان عاجزاً عن ذلك، لأن بلاده خرجت من الحروب والفتن منهوكة القوى ، فقد قرر تكليف ولاة البلاد العربية الخاضعة لسلطانه، وهي الشام والعراق ومصر ، النهوض بأعباء هذا العمل الكبير .

يقول ابن سند : (كان السلطان محمود مهتماً جداً بمحاربة الوهابيين، مستعظماً جيوشهم ، ولا يعتقد أن محمد علي باشا بعسكر مصر ينهض بهـذا الحمل الثقيل ، حتى ان السلطان عزم على تجهيز جيش آخر من طريق والي الشام وجيش ثالث من طريق والي العراق ، ليتساعدا مع محمد علي على طرد الوهابيين من الحرمين، لما كانوا يشاهدونه ويسمعونه من قوة الوهابي وضخامة جيوشه وإطاعة جزيرة العرب بأسرها له ..) .

والحقيقة هي أن كلاً من والي العراق ووالي الشام تلكأ عن الاستجابة لأوامر السلطان ، ويقول بركارت ان باشاوات بغداد ودمشق كانوا يرجحون استبقاء الأموال المعدة للحملة على الوهابيين في جيوبهم .. وكانوا يزعمون للسلطات أن مصر وحدها قادرة على غزو الحجاز ، لأنهـا تستطيع الوصول اليها بطريق البحر وهي آمنة مطمئنة ، وأما العراق والشام فيصعب عليهما ذلك كثيراً لأن جيوشهما مضطرة الى اجتيـاز صحارى واسعة محفوفة بالمخاطر والمهالك قبل وصولهما الى الحجاز .

وهكذا قرر السلطان العثماني تحميل والي مصر ، محمد علي باشا ، أمر الحرب في جزيرة العرب .

ويقول بعض المؤرخين ان السلطان العثماني كان ، بذلك ، يضرب عصفورين بحجر واحـد : كان يريد محاربة الوهابيين وتخليص الحجاز من أيديهم ، أولاً ، وكان يريد ، ثانياً ، إضعاف محمد علي بهـذه الحرب ثم إقصاءه عن ولاية مصر ، لتكون خالصه للترك !

ويقول الرافعي ان محمـد علي كان يعرف سوء نية السلطان العثماني ، ولكنه

رأى في الحملة على الوهابيين توطيداً لمركزه وسبيلاً الى رفع شأن مصر بين الدول، لأن نجاحها في إخضاع الوهابيين، وهو الأمر الذي عجز عنه سلطان الأتراك، سيخرج محمد علي من هـذه الحرب حاملاً إكليل الغار، وراية الفتح والفخار، فلا يقوى السلطان على التفكير في عزله !..

رسل السلطان الى محمد علي :

في عام ١٢٢٢ هـ. أرسل السلطان سليم رسولاً خاصاً من لدنـه الى محمد علي يأمره بالتجهز لمحاربة سعود، وقد قص علينا « الجبرتي » أخبار هذا الرسول، والرسل الذين جاؤوا بعده، مع محمد علي فقـال، في أخبار سنة ١٢٢٣، ان رسول السلطان (حضر بالأوامر بخروج العساكر للبلاد الحجازية وخلاص البلاد من أيدي الوهابية، وفي مراسيمه التي حضر بهـا التأكيد والحث على ذلك، فلم يزل الباشا يخادعه ويعده بإنفاذ الأمر، ويعرفه ان هذا الأمر لا يتم بالعجلة ويحتاج الى استعداد كبير والى إنشاء مراكب في القلزم وغير ذلك من الاستعدادات .

وعمل الباشا ديواناً جمع فيـه الدفتردار والمعلم غالي والسيد عمر والمشايخ، وقال لهم :

(لا يخفاكم ان الحرمين استولى عليها الوهابيون ومشوا أحكامهم بها، وقد وردت علينا الأوامر السلطانية المرة بعد المرة للخروج اليهم ومحاربتهم وجلائهم وطردهم عن الحرمين الشريفين، ولا تخفى عنكم الحوادث والوقائع التي كانت سبباً في التأخير عن المبادرة في امتثال الأوامر، والآن حصل الهدوء، وحضر قابجي باشا بالتأكيد والحث على خروج العساكر وسفرهم، وقد حسبنا المصاريف اللازمة في هـذا الوقت فبلغت أربعة وعشرين ألف كيس، فاعملوا رأيكم في تحصيلها) .

فلما سمع الحاضرون هـذه الدعوة إلى جمع المال الكثير تملكتهم الشفقة على الشعب ونقلوا للناس ما سمعوه، ثم اتفقوا « على كتابة عرض حال، ليصحبه ذلك القابجي إلى السلطان بصورة نمقوها » .

ويمضي الجبرتي بعد ذلك في التحدث عن فتنة استانبول التي انتهت بتنصيب

الأمير محمود سلطاناً ثم يذكر لنا ، في أخبار سنة ١٢٢٤ . وصول رسول جديد من عند السلطان ، يحمل مرسومين :

(أحدهما الإخبار عن صلح الدولة مع الانكليز والموسكوب – الروس – وانفتاح البحر ..

والثاني : الأمر بالسفر والخروج إلى فتح الحرمين وطرد الوهابية عنهما ..

.. وان يوسف باشا الصدر السابق المعروف بالمعدن ، تعين بالسفر للحرمين على طريق الشام .

وكذلك سليمان باشا، والي بغداد، متعين بالسفر أيضاً من ناحيته على الدرعية .

وأحضر – رسول السلطان – للباشا تقريراً بالولاية مجدداً، وخلعة وسيفاً .)

وفي أخبار سنة ١٢٢٥ هـ . يذكر الجبرتي ان السلطان أرسل مندوباً جديداً اسمه « عيسى آغا »، ولما وصل مصر (زار المسجد وفرّق الدراهم على الفقراء، وأحضر معه خلعة وألبسها لابن الباشا المسمى اسماعيل، وجعله باشا مير ميران ، كما أحضر معه أوامر وخلعة وسيفاً وخنجراً لمحمد علي باشا .. وصحبته أيضاً مهمات وآلات ومراكب ولوازم حروب لسفر البلاد الحجازية ومحاربة الوهابيين .)

وقد قرأ عيسى باشا ، في مجلس عام ، المرسوم الذي يحمله من السلطان (وهو الأمر بالخروج إلى الحجاز ، وألبس الباشا الخلعة والسيف بحضرة الجميع ، وضربوا مدافع كثيرة عقب ذلك .)

ويبدو أن مهمة عيسى باشا كانت موفقة ، وقد عاد إلى استانبول يحمل هدايا جليلة من محمد علي باشا إلى السلطان .

لماذا تأخر محمد علي عن تنفيذ أوامر السلطان ، ثم نفذها في كثير من الحزم ؟

لعل أعظم أسباب التأخير اشتغال محمد علي بمكافحة المماليك الذين كانوا يحكمون مصر ويريدون القضاء عليه ليستعيدوا عزهم القديم ، فلما تغلب عليهم ، وأصبح – كما يقول المؤرخ الفرنسي مانجان – « سيد مصر المطلق » ، صرف عنايته إلى إعداد الحملة ضد الوهابيين .

ويقول هانوتو ، مؤلف « تاريخ الأمة المصرية » : إن محمـد علي قرر خوض الحرب في جزيرة العرب لثلاثة اعتبارات :

١ – الطموح الذي كان يراود كل رؤساء مصر ، وهو التوسع نحو سورية ، عن طريق الشاطىء الآخر من البحر الأحمر .

٢ – الرغبة في توسيع نفوذه في العالم الإسلامي ، بإظهار قوته في قلب بلاد الإسلام .

٣ – الرغبة في التخلص من الأرناؤوط (الألبـان) ، لأنهم كانوا يحملونه أعباء جسيمة ويؤلفون خطراً عليه في القـاهرة ، فأراد إبعادهم إلى ساحات القتال في الحجاز ونجد .

اعداد الحملة :

أنفق محمـد علي جهوداً كبيرة وأموالاً كثيرة في إعداد حملته الى الحجاز ، ولم يتورع عن احتكار الأرزاق ومصادرة النـاس وفرض الضرائب الثقيلة على التجار لتأمين نفقات الحملة وحاجاتها ، ويقول مانجان ان محمـد علي أحب قبل سفر الحملة الى ساحات القتـال أن يعرف قوة عدوه وحقيقة نوايا الشريف غالب وأحوال القبائل الحجازية فأرسل السيد أحمد الملا الى الحجاز لهذا الغرض .

ذهب هـذا المندوب الى جدة أولاً ، فاستقبله الشريف غالب بمظاهر الثقة والترحيب ، فزعم له الملا أنه يريد الحج ، وودّعه وذهب الى مكة ، لا ليحج ، ولكن لينفذ وصية محمد علي ، فلما فرغ منها ، عـاد الى جدة ، وزار الشريف مودعاً ، فأرفقه الشريف برجل ثقته الشيخ أحمد التركي ، وطلب منهما أن يحملا الى محمد علي باشا تحياته وأمانيه المخلصة .

كان أحمـد التركي محدثاً بارعاً يحسن الاقناع والاجتذاب ، وكان يحمل معه هدايا جليلة من الشريف غالب الى محمد علي ، وقد استطاع أن يقنعه بأن الشريف مستعد لمساعدة الجيوش التي يرسلها محمـد علي ، تنفيذاً لأوامر السلطان ، بكل قواه وبكل موارده ، ولو ذهب هو نفسه ضحية هذا العمل ...

وأردف التركي قائلاً ان العرب كلهم مثل الشريف في ذلك ، فهم ينتظرون

وصول الجيوش لمساعدتها ، لأن أكثر سكان الحجاز يعيشون من موارد الحج وزيارة الأماكن المقدسة ، وقد حرمت البلاد في ظل الوهابيين من هذه الموارد وأصبح سكانها بؤساء .

زيادة عدد الحملة :

تحقق محمد علي من صحة أقوال التركي ، بمعلومات تلقاها من (الملا) ومن جهات أخرى ،فازداد نشاطه في إعداد الحملة ورفع عددها الى ثمانية آلاف: ستة آلاف مشاة وألفين من الخيالة .

وفي ١٠ نيسان سافر محمد علي الى الاسكندرية فباع ٤٠٠٠٠ اردب من القمح الى الانكليز ، وأكره عشائر ولد علي على دفع مبلغ كبير من المال اليه ، وقام الكيخيا ، من جهته ، بفرض ضرائب كبيرة على الملتزمين والتجار ، وبهذه الوسائل توفرت للحملة مبالغ كبيرة جداً ، الى جانب ما كانوا يصادرونه لأجلها من الحيوانات وخصوصاً البغال والأرزاق .

قائد الحملة .. وموكبه :

اختار محمد علي لقيادة الحملة ابنه طوسون باشا ، وأقام لهذه المناسبة عرضاً عسكرياً في شوارع القاهرة ، وقد سار الدالاتية في مقدمة العرض ، وتبعتهم عشر قطع من المدفعية ، ثم المشاة الترك – وكانوا يسيرون بأعداد كبيرة وفي غير ترتيب – ثم الوالي ، فأغاوات الينكشرية والمؤن ، ثم جمال حسنة الزينة ، فجياد رائعة يمتطيها التتار تسير بين يدي قائد الحملة طوسون باشا ، وكان يرافقه نائبه الكيخيا ، ويتبعه الحرس وفرقة من الموسيقيين .